الفصل الثانى

ملامح المجتمع الإسلامى

١ ـ وحدة العقيدة .

٢ ـ وحدة الوسائل .

٣ ـ وحدة الغاية .

٤ ـ الجماعة والعمل الجماعى .

ملامح المجتمع الإسلامى

لقد بعث النبى ﷺ والناس فوضى متفرقون ، لا نكاد نجد شخصين يلتقيان على كلمة سواء ، ولا زوجين يسيران فى اتجاه واحد ، قبائل متناحرة ، وبيوت ممزقة ، وأسر متفرقة .

مجتمع مهلهل فى عقيدته وأوضاعه واتجاهاته ، وأصدق تعبير عن هذا التمزق قول شوقى :

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام فى صنم

بعث النبى ﷺ وهذه حال العرب ، بل حال الدنيا كلها فكانت مهمته ﷺ جمع هذا الشتات ، ولم هذا الشمل .

لهذا جاء ﷺ بالتوحيد ، توحيد العقيدة ، وتوحيد الأمة ، وتوحيد الاتجاه ، وتوحيد الغاية .

هذا التوحيد الشامل لكل نواحى الحياة المختلفة ، واتجاهاتها هذا التوحيد ، هو الغاية العظمى التى من أجلها بعث رسول الله ﷺ فقامت أمته على التوحيد ، حتى كان التوحيد أساس عقيدتها ، ومصمم نظمها وثقافتها ، وروح مناهجها وطريقتها ، ومنطلق وسائلها وغايتها .

لم يكن هناك شىء يجمع هذه الأشلاء الممزقة إلا التوحيد ، حيث عجزت هذه الأمة أن تلتقى على عروبتها ، كما عجزت عن أن تلتقى بآلهتها المتخاصمة المبعثرة .

لقد عجزت صرخات الحنفاء من أبنائها الذين نادوا بالتحذير وبصروها بعاقبة أمرها أن تجمع هؤلاء المتفرقين كما عجزت توجيهات المصلحين عن توحيد صفها ، وجمع شملها لقد عجزت كل الوسائل عن أن تصل بهذه الأمة إلى ما يجب أن تكون عليه ، ولم يبق سوى التوحيد بمعناه الشامل الواسع الذى ذكرناه .

لقد شاء الله عز وجل لهذه الأمة أن تكون خاتمة الأمم وشاء الله لرسالتها أن تكون للناس كافة ، فهى ليست دعوة إقليمية ، وليست دعوة شعوبية ، وليست دعوة لأمة واحدة دون أمم الأرض جميعاً ، بل هى للأمم عامة ، وللناس كافة ، قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا** ﴾[1] .

فكان لا بد لهذه الأمة المصطفاة ، والتى كتب لها أن تبقى حتى تشهد مصرع الحياة ، كان لا بد لهذه الأمة من ملامح ، تميزها عن غيرها من الأمم التى ستعاصرها فى تلك الحقبة من الزمان ، فكانت تلك الملامح مجتمعة فى التوحيد .

١ ــ وحدة العقيدة :

العقيدة أهم وسائل توحيد الأمة ، لأن الأمة إذا كانت موزعة العقيدة ، متفرقة الدين ، تتخطفها آلهة شتى ، ويتنازعها أرباب متفرقون ، كانت أمة مبعثرة الاتجاه ممزقة الشريعة ، ضالة الغاية .

فتوحيد العقيدة يتجه أولاً إلى توحيد الله عز وجل إذ مقتضى التوحيد أن يكون إلهها الذى تتجه إليه واحداً ، وأن يكون ربها الذى تدين له بالربوبية واحداً ، وأن يكون معبودها الذى تحنو له جباهها واحدا .

وأن يكون توكلها على هذا الإله الواحد ، ورجاؤها فى ذلك الإله الواحد ، وخوفها من ذلك الإله الواحد ، ومحبتها لذلك الإله الواحد كما يكون نذرها وذبحها ، واستغاثتها واستعانتها ، وسؤالها وأملها ، كل ذلك يكون للإله الواحد ، لا تتجه بشيء من ذلك قل أو كثر إلا إليه ــ سبحانه ــ وإن أدنى اتجاه بشيء مما ذكرنا إلى غير الله عز وجل فمعناه الدينونة لما اتجه إليه الإنسان ، والعبودية لغير الله جل شأنه وهذا هو الشرك بعينه وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾[2] .

وأن أول تفرق الأمة وتمزقها يأتيها من تفرق عقيدتها ، فدعاء الناس مخلوقاً

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٨ .

(٢) سورة يوسف الاية ١٠٦ .

لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا هو أول أبواب الشر الكثيرة التى تفتح عليهم ، وخوفهم من المخلوقين ، وتوقع الضر والنفع منه هو أعظم البلاء الذى ينزل بهم ، وتوكلهم على ذوى الجاه والمناصب ، واعتقادهم بأنهم هم الذين يسيرون الأمور ، ويدفعون الشرور ، هو أكبر المخاطر التى تحيق بهم .

وهناك أهل التمائم والتعاويذ ، أولئك الذين تزعزعت عقائدهم ، ووهنت ثقتهم ، وضعف إيمانهم ، فلا يمشون إلا والتمائم فى أعناقهم ، لتدفع عنهم الشر ، وتجلب لهم الخير ، ويرجعون إذا شمألت الطير ، ويقلعون إذا نعقت البوم ، ويتشاءمون إذا مر بهم شخص أعور ، أو رأوا جرة مكسورة .

أولئك هم الذين فقدوا ثقتهم بالله ، ووثقوها فى مخلوق أو تميمة .

وهناك نوع جديد من العبودية لغير الله ، وصرف نوع عظيم من أنواع العبادة لغيره جل وعلا وهو تعظيم الزعماء . ووصفهم بصفات البارى جل شأنه واعتقاد نفعهم وضرهم والخوف منهم ،والاعتماد عليهم ، وذلك هو عينه الطاغوت الذى أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾[1] .

﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[2]

وهناك الذين يتخذون الأولياء والصالحين واسطة بينهم وبين الله عز وجل فإذا عزموا أمراً ذهبوا إلى قبورهم يسألونهم الوساطة ليتممها الله لهم ، وتلك عادة جاهلية ممقوتة نعاها الله على أصحابها فى قوله تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾[3] .

وليس معنى هذا أنا نمنع زيارة القبور ، أو الوقوف عليها للعبرة والموعظة ، فذلك شيء أمر به الشارع ﷺ حيث يقول : «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة »[4] وقول الفضيل بن

(١) البقـرة الآية ٢٥٦ .
(٢) النحل الآية ٣٦ .
(٣) الزمر الآية ٣ .
(٤) رواه مسلم .

عياض : « ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه »[1].

فلا بأس إذا شرعا أن تزور القبور لترى مصيرك فى أهلها وتعرف مكانك بين أصحابها ، فيرق قلبك ، وتدمع عينك ، وتعود وقد زودت نفسك بما يعينك على إصلاح أمرك ، وسداد خطوك وتحديد مسيرتك ، ولكن البأس كل البأس ، والخطر كل الخطر فى أن تسأل أصحابها شيئاً ، أو تستعين بهم فى شىء لا يقدرون عليه لأنفسهم .

هذا التمزق فى التفكير ، وهذه الأشتات المتنافرة فى الاتجاه تظهر الأمة بمظهر الفرقة والاختلاف ، فترى متناحرة متخاصمة ، يطمع فيها أعداؤها ويهون شأنها على خصومها ، ذلك لأن تفرق العقيدة أشتاتاً لا حصر لها يؤدى إلى اختلاف السبل ، إذ يكون لكل وجهة تتعارض مع وجهة الآخر وطريق تختلف قرباً وبعداً من الآخرين بقدر اختلافهم فيها .

ومن أجل القضاء على هذا التباين الذى لا مفر منه ما دامت العقيدة متفرقة ، ولأجل تحديد مسيرة الأمة وعدم تفرقها ، جاء الإسلام بالتوحيد توحيد العقيدة الذى يجعل الناس جميعاً يسيرون فى اتجاه واحد حيث تكون الوسيلة واحدة والغاية واحدة ، لاثنوية ولا تثليث ولا تشاؤم ولا وساطة ، بل الكل فى ذات الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة .

فحينئذ يكون العمل لله ، والترك لله ، والحب لله ، والبغض لله والعطاء لله ، والمنع لله ، والعبادة لله ، والسؤال لله ، والاستعانة بالله ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له** ﴾[2]

والرسول ﷺ يعلم ابن عباس رضى الله عنهما حقيقة التوحيد ، فيقول : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، ولو اجتمعت على أن ينفعوك لم

---

(١) كشف الخفاء .

(٢) الأنعام الآية ١٦٢

ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، جفت الأقلام وطويت الصحف »[1] .

بهذا التوحيد تخط الأمة لنفسها طريقاً سويا ، تجتمع عليه دون أن يشذ منها شاذ ، ومن أجل هذا كان ﷺ يقول لقومه : « كلمة واحدة يدين لكم بها العرب ، وتملكون بها العجم » .

روى ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد** ﴾[2] قال : إن قريشاً أرسلت رجلاً إلى أبى طالب فقال له : هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك ، وقال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه ، وقال : بعث إليه أبو طالب ، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخى ، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ، ويدعوك وإلهك ، قال ﷺ : « يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم » ؟ قال وإلام تدعوهم ؟ قال ﷺ : « أدعوهم أن يتكلموا بكلمة يدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم : ما هى ؟ وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها ، قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله » فنفروا وقالوا : سلنا غيرها قال ﷺ : « لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها » فقاموا من عنده غضاباً ، وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك بهذا .

إنها كلمة التوحيد ، كلمة واحدة تحدد اتجاه القوم ، وتحدد وسيلتهم وتحدد غايتهم ، إن كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » تجمع القلوب المتنافرة فإذا هى وحدة هائلة ، وتدعم النفوس الواهنة ، فإذا هى قوة رادعة وتلم الفئات المبعثرة ، فإذا هى كتلة صلبة .

إن هذه السبل المتنافرة التى خلفها الشرك والكفر تبدد الجهود المبذولة ، وتصدع القلوب الملمومة ، وتترك الناس حيرى هائمين كالسائمة غاب عنها الراعى الواعى الأمين .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير مع اختلاف قليل .

(٢) سورة ص الآية ٦ .

أما إذا تحقق التوحيد فى القلوب ، وسيطر على النفوس ، غير مجرى الحياة كلها ، فترى الناس يستمدون قوتهم من الله الواحد ، ويستلهمون خطتهم من الإله الواحد ، تطمئن قلوبهم إلى نصره ، وتطمع نفوسهم فى تأييده ، وتمتد إليه سبحانه أيديهم بالسؤال ، لأنه وحده الذى يملك الإجابة ، وتعنو جباههم له بالعبادة ، لأنه الواحد الذى يستحق العبادة ، وتطأطىء رؤسهم لعظمته ، لأنه الواحد المتفرد بالعظمة ، وتنحنى هاماتهم خضوعاً لجلاله ، لأنه وحده ذو الجلال والإكرام ، وتنقطع آمالهم إلا من كرمه ، لأن خزائنه سحاء الليل والنهار ، وتخضع أعناقهم لحكمه ، لأنه جل شأنه لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

فهو جل جلاله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

إن عقيدة التوحيد تجمع القلوب المتفرقة ، وتمد الضعفاء بقوة فوق قوة البشر ، وتجعل من الأمة المبعثرة الممزقة وحدة ترهب الأعداء ، وتحقق الآمال ، وتنشر العزة بين صفوف الموحدين فيواجهون الشدائد بعزة المؤمنين ، ويتغلبون على الصعوبات بقوة اليقين بنصر الله .

إن كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » بمفهومها الحقيقى تخضع الأمة كلها لمفهوم واحد ، يصدر عنها عقيدة واحدة ينشأ عنها جيل موحد الفكر ، موحد الوسيلة ، موحد الغاية وتلك هى غاية التوحيد .

والشطر الثانى لكلمة التوحيد هو « شهادة أن محمداً رسول الله » يجعل المجتمع كله خاضعاً لما جاء به رسول الله ﷺ فى مفهومه ، وفى تصوره ، وفى اعتقاده ، ومعنى هذا أن المجتمع المسلم لا بد أن يلتقى على شريعة الله ، ويتلقاها عن رسول الله ، فيعبد ربه بما عبده به رسول الله ، ويبنى أفراده على قواعد هذا الشرع الحنيف ، بحيث يكون كل فرد من أفراده لبنة فى هذا الصرح الشامخ .

فشهادة أن محمداً رسول الله توجب على المجتمع المسلم الذى يدين بها أن يتخذ رسول الله ﷺ قائداً له فى كل أحواله ، فلا يحيد عن طريقه فى الفهم

والتصور والعقيدة والتشريع ، والعبادة والمعاملة ، لا بد أن ينبثق فهمه وتصوره من الإسلام ، فيأبى كل فهم يتنافى مع الإسلام ، ويرفض كل تصور لا يتلاءم مع الإسلام .

ولا بد أن تنبع عقيدته وشريعته من الإسلام ، فيأبى كل عقيدة سوى التوحيد ، ويرفض كل تشريع وضعه أهل الأرض مهما كانت نوعية ذلك التشريع .

ولا بد أن تكون عبادته ومعاملته وفق خطة الإسلام ، فيأبى كل عبادة لغير الله ، ويرفض كل معاملة لا تقوم على أساس شريعة الله .

إن فهم المجتمع الإسلامي وتصوره لا بد أن يكون خاضعاً لمبادىء الإسلام ، ذلك لأن عقلية المسلم لا بد أن تغرس فيها الحقائق الإسلامية ، فتنبت وتترعرع فيها بحيث لا تجد المفاهيم الأخرى إليه سبيلا ، فهو يرى الأشياء ببصيرة المسلم ، ويحكم عليها من خلال تصوره الإسلامي الصحيح ، فلا ينخدع بالمبادىء الهدامة ، ولا تبهره الصور الزائفة ، وهو يرد كل شيء إلى الإسلام فما وافقه أخذه وسلم به ، وما خالفه رفضه .

وإن عقيدة المجتمع المسلم وشريعته لا بد أن تكون قائمة على هدى رسول الله ﷺ ذلك لأن العقيدة لا تؤخذ إلا عن رسول الله ، والشريعة لا تكون صحيحة إلا إذا كانت تابعة لما جاء به رسول الله ، فلو صح أن يأخذ الناس عقيدتهم وشريعتهم من أفواه الكهنة والأحبار ، لما صحت عقيدة ولا نفعت شريعة ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾[1] .

وإن عبادة المجتمع المسلم ومعاملاته لا بد أن تكون مأخوذة من الوحي الذي أنزل على رسول الله ﷺ ذلك لأن الله لا يعبد إلا بما جاء به نبيه ، والمجتمع لا يستقيم أمره إلا إذا كانت معاملاته خاضعة لتشريع رسول الله ، ولو صح للناس أن يعبدوا الله تعالى تبعاً لأهوائهم ، وأن يتعاملوا وفقاً لنزعات نفوسهم لاضطربت الأحوال ، وفسدت الأوضاع ﴿ **وما آتاكم الرسول**

---

(١) المؤمنون الآية ٧١ .

فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[1] .

وتلك هى حقيقة الشطر الثانى من الركن الأول للإسلام .

٢ ــ وحدة الوسيلة :

إن وحدة الوسائل من أهم أسباب وحدة الأمة الإسلامية ، لأن الوسائل هى الطرق الموصلة إلى الغاية ، والغاية فى الإسلام هى إرضاء الله عز وجل بطاعته فيما أمر ونهى وإخلاص العبادة له وحده دون سواه ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾**[2] .

ولقد شرع الإسلام الوسائل التى تتضمن توجيه الناس إلى الغاية التى خلقوا من أجلها ، شرع الإسلام العبادات وكلف بها الجميع على السواء ، وهى علاوة على كونها عبادة لله عز وجل فإنها وسائل تجمع الأمة ، وتخط بها طريقاً سوياً تسير فيه على هدى وبصيره حتى تصل إلى غايتها .

والوسائل فى الإسلام يجب أن تكون شريفة لشرف الغاية التى نريد الوصول إليها ، والإسلام يرفض القاعدة التى اختطها بعض الناس ، ورسموا منهج حياتهم على أساسها وهى « الغاية تبرر الوسيلة » يرفض الإسلام هذه القاعدة ، لأن الغاية التى يعمل لها غاية نظيفة شريفة ، ولا يمكن الوصول إليها إلا بوسائل نظيفة وشريفة .

فمهما كانت عظمة الغاية ، ومهما كانت حاجة الإنسان إليها فإن ذلك لا يبرر مطلقاً الوصول إليها بوسائل غير مشروعة ، لأن الوسائل غير المشروعة ، لا توصل إلا إلى غايات غير مشروعة .

فإذا كنت تريد جمع المال الحلال فإنه لا يمكنك الوصول إليه بطريق الربا ، أو الاحتكار أو الرشوة أو القمار .

وإذا كانت غايتك أن تعف نفسك فلا يمكنك ذلك عن طريق الزنا أو اللواط .

---

(١) الحشر الآية ٧ .

(٢) الذاريات الآية ٥٦ .

إذا أردت أن تكون شجاعاً فلا يتأتى ذلك بالاعتداء على الضعفاء أو الجبناء .

وفرق واضح بين أولئك الذين يَتَحَرون الحلال فى المكسب والمطعم والمشرب ، وبين أولئك الذين يريدون جمع المال ، ولا يهمهم كيفية الحصول عليه ، وبين أولئك الذين يريدون إعفاف أنفسهم وبين الذين لا هم لهم إلا إشباع رغباتهم ، وبين الشجاع الأبى ، وبين المعتدى على الضعفاء .

الفرق واضح ولا شك ، لأن الغاية الشريفة تأبى أن تنال بوسائل خسيسة ، لهذا فإننا نرفض تلك القاعدة ، ونرفض أن تكون منهاج حياتنا .

والوسائل التى وضعها الإسلام تتلخص فى العبادات ، فالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وسائل يتحقق بها الوصول إلى الغاية العظمى إرضاء الله تعالى بطاعته وعبادته .

وهى فى نفس الوقت عوامل تجميع تُصَفُّ الأمة فى ساحة وتجمعها فى ميدان واحد ، وتأخذ بيدها إلى غاية واحدة ، فتسير كلها فى اتجاه واحد لتحقيق غاية واحدة .

هذه الفرائض لم تفرض على قوم دون قوم ، ولم تجب على الذكور دون الإناث ، بل هى فريضة على كل مسلم ومسلمة تتوفر فيه الشروط المطلوبة .

كيف تحقق هذه الوسائل أهدافها ؟

الصلاة : إن الله تبارك وتعالى فرض الصلاة على المسلمين جميعاً : ﴿ **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباًموقوتا** ﴾[1] .

هذه الصلاة تجمع المسلمين فى صعيد واحد كل يوم خمس مرات على صعيد الحى ، ثم فى كل أسبوع مرة على صعيد القرية والمدينة ، فى صلاة الجمعة ، ثم كل عام مرتين فى صلاة العيدين على صعيد المدينة .

ولا يجوز لمسلم يسمع النداء للصلاة ، وهو غير معذور ، ثم يصلى فى

(١) سورة النساء الآية ١٠٣ .

بيته ، لأن الرسول ﷺ قال للأعمى الذى جاء يستأذن ليصلى فى بيته : أتسمع النداء ؟ قال : نعم قال فأجب[1] .

ثم طلب من المسلمين أن تكون هذه الصلاة فى جماعة ، ولقد رفض رسول الله ﷺ أن يسمح للأعمى الذى لا قائد له ، وبين بيته والمسجد نخيل وأشجار ، وهو يخشى أن يصطدم بشيء من ذلك فى طريقه إلى المسجد ، رفض ﷺ أن يبيح له الصلاة فى داره ، وسأله ، أتسمع الأذان ؟ أتسمع الإقامة ؟ ويجيب الرجل نعم ، فيقول الرسول : « لا أجد لك عذراً »[2] .

لماذا ؟ ليجتمع المسلمون ويحافظوا على هذا التجمع الذى يزيد من قوتهم ، ويقوى روابط المحبة والمودة بينهم ، وليتعارفوا ويتشاوروا فتجتمع قلوبهم ، وتتوحد صفوفهم ، ويسيروا جميعاً صفاً واحداً إلى غايتهم .

الصيام :

والصيام فريضة جماعية أيضاً ، وقد يتخيل بعض الناس أنه يصوم وحده ، ويفطر وحده ، وأن صيامه غير مرتبط بصيام أحد .

وهذا التخيل غير صحيح ، لأن الصيام محدد بوقت معين يصوم فيه المسلمون جميعاً فى كافة أنحاء الأرض المختلفة وهو شهر رمضان ولا يجوز لأحد من المسلمين أن يصوم شعبان بدل رمضان ولا أن يصوم شوال بدلاً منه إلا أن يكون معذوراً .

وفترة الصيام محدودة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فلا يحل لمسلم أن يأكل فى تلك الفترة أو يتناول شيئاً من المفطرات دون عذر شرعى ، فالمسلمون جميعاً مرتبطون فى بدء صيامهم بطلوع الفجر ، وفى انتهائه بغروب الشمس ، وذلك هو عين المعنى الجماعى الذى يرمى إليه الإسلام فى مشروعيته للعبادات كلها .

---

(١) رواه مسلم مشكاة المصابيح جـ ١ ص ٣٣٢ .

(٢) رواه مسلم .

الزكـــاة :

والزكاة لا تخلو من هذا المعنى العام ، ذلك لأن الدولة هى التى تجمع الزكاة وهى التى توزعها على الفقراء والمستحقين فهى تجمع من كافة الموسرين ، وتوزع على كافة المستحقين ، فمجموعة المسلمين الأغنياء ، يشعرون بواجبهم نحو مجموعة إخوانهم الفقراء وهذا هو المقصود من معنى الجماعة فى العبادة .

ولا ينافى هذا ما رآه بعض الفقهاء من جواز إخراج الزكاة من كل فرد على حدة فى الوقت الذى يحين فيه وقتها ، لأن ذلك يكون فى حالات خاصة ، ومع ذلك فهو لا يمنع من شعور مجموعة الأغنياء بحاجة إخوانهم المحتاجين والمستحقين ، فهى فريضة جماعية اجتماعية لا يشك فى ذلك اثنان .

ثم الحـــج :

والحج من فرائض الإسلام الخمسة ، وهى فريضة يبدو فيها الجانب الجماعى بوضوح ، فالمسلمون يلتقون فى يوم واحد ومكان واحد ، وليس لأحد أن يتقدم هذا اليوم بالوقوف أو يتأخر عنه ، ومن يفعل ذلك فحجه فاسد .

والمسلمون جميعاً عند أداء هذه الفريضة يلبسون زياً واحدا ويقومون بأعمال جماعية كالطواف والسعى والرمى والحلق كلهم مكلفون بذلك ، ولا يجوز لمن يريد أداء هذه الفريضة أن يمتنع عن فعل شىء من ذلك .

فاجتماع المسلمين فى يوم واحد ، ومكان واحد ، وقيامهم بأعمال واحدة كل ذلك ينمى فيهم الروح الجماعية التى جاء من أجلها الإسلام .

ومن هذا نفهم أن العبادات التى فرضها الله تعالى على المسلمين كلها وسائل تجميع للأمة تربى فيهم حب الجماعة ، وتنمى فيهم الروح الجماعية ، وترغبهم فى العمل من أجلها ، والتضحية فى سبيلها .

فالإسلام إذن هو دين التوحيد الخالص ، دعا إليه فى العقيدة ورسمه فى

الوسائل، وفرضه على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بقوله تعالى : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون** ﴾[1] .

٣ ــ وحـدة الغاية :

وتلك هى السمة الثالثة من سمات المجتمع المسلم إن وحدة الغاية هدف مقصود ، بل هو الغاية التى من أجلها خلق الإنسان ، فإن من الممكن أن يلتقى جماعة من الناس على عقيدة واحدة ، ومع ذلك تختلف غاياتهم .

فكثير من الناس يتخذون الشيوعية ، مذهباً وعقيدة ، ولكنهم يختلفون فى الغاية ، فهذا يعتنق الشيوعية ليستنزف بها أموال الناس وهذا يعتنقها ليصير بها دكتاتوراً يتحكم فى رقاب الناس ، والآخر يعتنقها حقداً على ذوى الأموال والمناصب . وكثيرون أيضاً يتخذون الرأسمالية مذهباً وعقيدة ولكنهم يختلفون فى الغاية كما اختلف الذين من قبلهم فهذا يعتنق الرأسمالية ليسخر بها العمال ويستغل طاقاتهم وهذا يعتنقها ليبتز أموال الناس ويجمع منها أكبر قدر ممكن والآخر يعتنقها ليتوصل بها إلى مآربه من الجاه والسلطان .

لا شك أن هؤلاء وأولئك كل منهما يعتنق عقيدة واحدة ، ولم تستطع تلك العقيدة أن توحد غاياتهم ، وأن ترسم لهم منهج حياة لا يختلف .

وكما عجزت هذه العقائد عن توحيد الغاية ، فإنها عجزت عن تحديد الوسائل المؤدية إلى الغاية ، ولا شك أن وحدة الوسائل تؤدى إلى وحدة الغاية ، ولما كانت هذه العقائد عاجزة عن تحديد الوسائل ، كان لزاماً أن تختلف الغاية .

ونحن نرى ذلك واضحاً فى الواقع الذى يعيشه أهل هذه العقائد ، فإن الشيوعيين تجمعهم عقيدة واحدة ، ومع ذلك تعددت غاياتهم تبعاً لتعدد الوسائل .

فمن كان المال غايته سلك إليه وسائل شتى ، فقد يصادر الأموال ، وقد يحتكر الاتجار فى بعض المواد المربحة ، وقد يلجأ إلى مشاركة كبار التجار مختفياً

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٢ .

وراء أسمائهم .

ومن كانت غايته التسلط والحكم ، فإنه يسلك لذلك طرقاً متعددة فالإرهاب والتخويف أحد وسائله والتعذيب والسجن وسيلة أنكى وأمر ، وشراء الزعماء وإغراؤهم بالمال مكيدة حقيرة للوصول إلى تلك الغاية .

وكذلك الرأسماليون يدينون بعقيدة واحدة ، ولكن غاياتهم متعددة فمن كانت غايته تسخير العمال واستغلال طاقاتهم وصل إلى غايته بزيادة ساعات العمل أحياناً ، وقلة الأجور أحياناً ، وطرد العمال ليتعطلوا فيعرضوا أنفسهم بأجور أقل أحياناً أخرى .

ومن كان همه الجاه والسلطان ، فإنه يستطيع الوصول إلى ذلك بالرشوة تارة ، وبشراء الأصوات فى الانتخابات تارة وبتقييد عمال مصانعه فى دائرته الانتخابية ليختاروه نائباً أو شيخاً تارة أخرى .

وهكذا نرى أن العقيدة فى هذه المذاهب لا تحدد الوسيلة من جهة وبالتالى لم تتوحد غاياتها ، ولهذا فإننا نرى أصحاب هذه العقائد يختلفون على أنفسهم اختلافاً بيناً فى كل شيء ، حتى ليخيل إليك أن أصحاب العقيدة الواحدة لايمت واحد منهم إلى الآخر بصلة ، ولما كانت العقيدة هى أقوى الروابط التى تشد الناس بعضهم إلى بعض ، فتوحد مسيرتهم ، وتجمع كلمتهم ؛ وتحدد غايتهم ، كان من الطبيعى أن تكون هذه العقائد كذلك ، ولكن الواقع بين أصحابها ليس كذلك ، لماذا ؟ ؟

لأن الحقيقة التى لا يستطيع أحد إنكارها هى أن هذه العقائد شعارات براقة فقط ، وكلمات معسولة ليس غير .

ماذا حققت الشيوعية لمعتنقيها ، وقد قامت لها دولة كبرى هى ثانى دولة فى العالم ؟ ماذا حققت من مبادئها ؟ ؟

لا شك أنها أفقرت الأغنياء ، ولم تزد الفقراء إلا فقرا .

وماذا حققت الرأسمالية لأربابها ، وهم أصحاب أكبر دولة فى العالم ، ويتبعها أغنى دول العالم ، ماذا حققت من مبادئها ؟ ؟

إنها لم تستطع أن تسوى بين أبنائها فى الحقوق والواجبات ولا زالت

تجاهد ، فى سبيل تحقيق هذا المبدأ الذى هو أول مبادئها والفشل يلاحقها فى كل ميدان ، ولا زال نظام الطبقات والتفرقة بين السود والبيض هو المهيمن على هذا المجتمع .

أما عقيدة التوحيد التى آمن بها المسلمون ، وتمسكوا بها تمسكاً فاق كل حد فإنها ترتبط بالوسائل ارتباطاً وثيقاً ، وتوحد الغاية التى جاءت من أجلها .

فتوحيد الله عز وجل هو إفراده بالعبادة ، وعدم صرف شيء منها ـ مهما قل ـ لغيره ، وتلك هى الغاية المطلوبة .

وأنواع العبادة المختلفة هى الوسائل التى فرضتها العقيدة لتوصل إلى تلك الغاية .

فالعقيدة عندنا هى التى تحدد الوسائل ، والوسائل هى التى توصل إلى الغاية .

ومن هنا يتضح الفرق بين عقيدتنا وبين العقائد الأخرى وأحب أن أوضح هنا أن المايزة والمفارقة لن تكون بين الديانات السماوية ، ذلك لأن هذه الديانات ما عدا الإسلام عاجزة عن مواجهة مشكلات العالم اليوم ، ولم يدع أحد من أتباعها أنها جاءت لحل مشكلات العالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل ولم يطمع أهلها منها فى ذلك ، وغاية ما يتطلعون إليه من اعتناقها أن تربطهم بعالم أسمى من عالمهم ، وأن تلج بهم ملكوت السماوات على حد زعمهم .

وستكون المايزة بين عقيدتنا وبين العقيدتين اللتين يزعم أربابها أنهما جاءتا لإنقاذ البشرية وحل مشكلاتها المعقدة وهما : الشيوعية والرأسمالية .

ونستطيع أن نقول أن عقيدتنا تخالف العقيدتين المذكورتين فيما يأتى :

أولاً :

أن عقيدتنا ربانية سماوية ، لم يدخلها تحريف ، ولم يطرأ عليها تبديل ، لذا فإنها صالحة لكل زمان ومكان ، لأن الذى شرعها هو خالق الزمان والمكان ، وهو أعلم بما يصلح عباده فى كل زمان ومكان .

وقد طبقت فعلاً فى البلاد التى فتحها المسلمون مع اختلاف أجناس الناس وطبقاتهم وبيئاتهم فكانت بالتجربة العملية ناجحة نجاحاً بهر العالمين .

ولذا أيضا فإنها لا تحتمل الخطأ والتعديل ، لأن مشرعها سبحانه لا يجوز عليه الخطأ ، وليس لأحد من خلقه مهما كان نبياً أو مقرباً أن يمد يده إلى شرعه بالتعديل أو التبديل .

وأما النظر فيما يستجد من المسائل ، وإصدار الأحكام فيها ، فذلك ليس تعديلاً من خطأ ، أو إضافة من نقص ، بل هو إلحاق للمسائل المستجدة بما يشابهها من المسائل التى نزلت فيها الأحكام ﴿**ذلك تخفيف من ربكم ورحمة**﴾[1] .

وأما العقائد الأخرى فإنها بشرية أرضية ، لذا فإنها لا تصلح لكل زمان ومكان ، لأن مشرعيها إنما يضعونها للفترة التى يعيشون فيها ويتوقعونها ، وللبيئة التى درسوها وخبروا أحوالها ، فما وضع فى القرن الثامن عشر ، ألغته دساتير القرن التاسع عشر ، وما كان مناسباً للقرن التاسع عشر ، لم يعد مناسباً للقرن العشرين .

وما صلح منه لأمريكا ، لم يصلح لانجلترا ، وما نجح فى روسيا فشل فى فرنسا وهكذا .

ولذا أيضاً فإنها محتملة للخطأ والتعديل ، لأن مشرعيها بشر تغلب عليهم محاباة طبقة على حساب طبقة أخرى ، قصيرو النظر ، لا يرون إلا ما هو واقع تحت سمعهم وبصرهم ، ولهذا يبدلون ويعدلون فيها كل آونة وأخرى ، تجد لهم أوضاع لم تكن فى حسبانهم ، فيضطرون إلى التعديل والتبديل وهكذا .

وهى أيضاً تخضع لهوى الحكام وشهواتهم ، فيبدلون فيها ما لا يناسبهم ، ويثبتون ما يتناسب مع رغباتهم .

وثانيـاً :

إن عقيدتنا شاملة جامعة ، فهى تتناول أوضاع الحياة كلها ، دون أن

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٨ .

تفرط فى شىء منها ، فهى تنظم الجانب الإلهى فى الإنسان ، كما تنظم الجانب الإنسانى فيه ، وتهتم بالجانب الأخلاق ، اهتمامها بالجانب الاقتصادى ، وتحرص على الجانب السياسى ، حرصها على الجانب الدينى .

وبهذا تربط عقيدتنا بين هذه الجوانب كلها برباط وثيق فتسير الحياة كلها فى ظل العقيدة ــ عقيدة التوحيد .

ليس هناك دين منعزل عن الدنيا ، ولا سياسة بعيدة عن الأخلاق ، ولا اقتصاد لا تراعى فيه مصلحة الإنسان ، بل هناك تناسق وتجاوب فى أنحاء الحياة المختلفة ، فالسياسة تواكب الأخلاق ، والدين لا ينفك عن الدنيا ، والعلاقة وثيقة بين الأخلاق والسياسة والدين ، نتعامل على أساسها فى الاقتصاد ، كما نتعامل بمقتضاها فى التقاضى والمحاكمات .

تلك هى طبيعة عقيدتنا تنتظم مناحى الحياة فتوجهها الوجهة الخيرة الرشيدة . وفى ظلالها يشعر كل فرد بمسئوليته أمام الله تعالى الرئيس والمرءوس ، الموظف والتاجر ، العامل والصانع ، البائع والمزارع ، وتلك المسئولية هى التى تحدد الخط الذى تسير فيه الدولة الإسلامية ، والشعور بها هو الذى ينشر السعادة والطمأنينة بين أبنائها ، حيث لا جور من الحكام ، ولا إهمال من المحكومين ، ولا تعقيد من الموظفين ، ولا غش من التجار ولا تفريط من العمال ، ولا إفراط من أصحاب الأعمال ، كل فرد من أفراد الأمة يعيش فى كنف العقيدة ، مستظلاً بعدالتها ، ناعماً بالسعادة التى كفلتها لمن يعيش فى كنفها .

أما العقائد الأخرى فإنها ضيقة محدودة ، ضيقة بقدر ما يضيق الإنسان بالحياة التافهة الخالية من اليقين والإيمان ، محدودة بقدر الحيز الذى يشغله الإنسان على ظهر هذه الأرض الرحبة الفسيحة ، لذا فإنها تقتصر على جانبين فقط من جوانب الحياة المتعددة الكثيرة .

فهى إما أن تتناول الجانب السياسى أو الاقتصادى ، وهذان هما ما يعنى العقائديين فى هذه الحياة ، أما الجانب الأخلاق أو الجانب الروحى ، فلا يعنيان العقائديين فى قليل ولا كثير .

أم ذاك ؟ »[1] .

ومن هنا يتضح أن المادية بمخالبها الفتاكة هى التى تسيطر على المذهبين العالميين ـــ الشيوعية والرأسمالية ـــ وأن همهما كله محصور فى السياسة والاقتصاد ، وأنهما أهملتا عن قصد الجانب الأخلاق ، والجانب الروحى ، بقدر عنايتهما بالجانبين السياسى والاقتصادى فاختل بذلك التوازن الإنسانى الذى أوجده الإسلام ، وأرسى قواعده على أسس متينة من الأخلاق ، مراعياً حاجات الإنسان المختلفة التى لا حياة له ـــ حياة صحيحة بدونها ـــ وهى التناسق بين الجوانب مجتمعة ـــ الروحية والأخلاقية والجسمية والسياسية والاقتصادية .

ومن أجل هذا عادت الشيوعية الأديان ، فالدين فى نظرها أفيون الشعوب ، يعوق مسيرتها ، ويحول دون نهضتها ، يقول صاحب المنجد : « كارل ماركس ينبذ كل الديانات ، ولا يرى فيها سوى وسيلة يستعملها الأغنياء ، لبسط سلطانهم على الفقراء » ويقول : « الشيوعية مذهب كارل ماركس الاجتماعى ، قال فيه : إن العوامل الاقتصادية وحدها تقيد تطور تاريخ الإنسانية ، وإن الفوارق الاقتصادية تؤدى إلى تكوين طبقات فى المجتمع تستثمر إحداها الأخرى ، وإن التقدم التاريخى يحصل من العراك ، بينها ، وتفوز الطبقة العاملة آخر الأمر بالسيادة ، فتكون مجتمعاً تلغى فيه الطبقات والملكية الشخصية »[2] .

والدين فى نظر الرأسمالية ضد التطور ، وعدو العلم ، وعقبة كأداء فى طريق الحضارة والحرية ، ومن هنا كانت الثورة ضد الكنيسة وكان انفلات الناس من ربقة الدين ، ليتعمقوا فى العلم ، ويحصلوا الحرية ، وينعموا بالتقدم الحضارى .

يقول المرحوم سيد قطب : « هنالك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حرباً لرجال الدين ، وممثلى الكنيسة ، والمحافظين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ، ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم

(١) فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٨٨ دار الشروق .

(٢) المنجد مادة شاع (فى الآدب والعلوم) .

وأخلاق وآداب وعادوا الدين المسيحى أولاً ، والدين المطلق ثانياً ، واستحالت الحرب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين المسيحى ـــ وبلفظ آخر الديانة البوليسية[1] ـــ حرباً بين الدين والعلم مطلقاً .

وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان وأن العقل والنظام الدينى لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثانى »[2] .

هكذا ضاقت النصرانية بالعلم ، وبادلها العلم هذا الضيق وأشد ، كما حقدت الشيوعية على الأديان واعتبرتها مخدراً للشعوب .

أما عقيدتنا فقد وسعت الدنيا والآخرة ، وزاوجت بين الدين والعلم ، وشملت نواحى الحياةالمختلفة ، وتناولتها بالتنظيم والتنسيق ، ولم تضق قط ، ولن تضيق بشىء منها ، إلا ما كان خبيثاً ضاراً ، لا نفع فيه ، ولا فائدة ترجى من ورائه .

وثالثـاً :

إن الجهاد المقدس فى عقيدتنا فريضة ماضية إلى يوم الدين ، وأنه فرض لتأمين الدعاة ، ونشرالدعوة فى جو هادىء تغمره حرية الفكر وصراحة الاختيار ، وليس الجهاد فى الإسلام لإجبار الناس على اعتناق مبادئه ، ولا من أجل استعمار البلاد ، واستعباد أهلها ، ولا لتوسيع رقعة الأرض التى يعيش عليها ، واستغلال خيراتها .

يقول رسول الله ﷺ : « ثلاث من أصل الإيمان الكف عمن قال : لا إله إلا الله ، ولا نكفره بذنب ، ولا نخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال ، ولا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار »[3]

وإننا لنرى فى تاريخ الإسلام أن بعض البلاد فتح عنوة ، وبعضها فتح صلحاً ، والفرق بين الاثنين أن الأولى وقفت فى وجه الدعاة والدعوة ،

(١) نسبة إلى بولس الذى حرف النصرانية التى جاء بها عيسى عليه السلام

(٢) المستقبل لهذا الدين ص ٥٢ .

(٣) رواه أبو داود .

والعقائد المشهورة الآن هى الرأسمالية والشيوعية ، وكلا المذهبين لا يعنيان نفسيهما بالمسألة الأخلاقية ، ولا بالجانب الروحى ، إذ لا هم لهما إلا السياسة والاقتصاد ، وما عدا ذلك فهى أمور لا تستحق العناية ، وليست مما هو جدير بالاهتمام .

والأخلاق فيهما مرتبطة بالمادة ارتباط الروح بالجسد ، فما حقق منها نفعاً يجب العناية به ، والتمسك بأهدابه .

فالصدق والأمانة والوفاء بالعهد وضبط الموعد ، هى أمهات الفضائل عندهم ما دامت تحقق الربح المادى ، وتعود بالنفع على المتمسكين بها ، فإذا تبين لهم أن الصدق لا يجلب مكسباً وأن الأمانة لا تزيد الربح ، وأن الوفاء بالعهد يطردهم من البلاد التى استعمروها ، وأن ضبط الموعد يؤدى إلى تقليص ممتلكاتهم : تنكروا لتلك الفضائل ، وانقلبت عندهم إلى أبشع الرذائل ، يدل على ذلك معاملتهم للدول التى استعمروها .

أما الأخلاق التى لا ترتبط بالمادة فلا وجود لها فى حياتهم فالعفة والقناعة والإيثار والتضحية ، وبذل النصيحة والدفاع عن العرض ، أمور لا وجود لها إلا فى الكتب .

والذى يمعن النظر فى كلا المذهبين يرى من وراء الستار أصابع اليهود تخطط لانتشار المذهبين ، ومن ثم للسيطرة على العالم .

كارل ماركس صاحب المذهب الشيوعى ومؤسسه يهودى ألمانى يقول الأستاذ محمد قطب : « واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال ، استغلته على يد ثلاثة من أكبر علمائها ، قاموا بصياغة الفكر الأوربى كله فى ميدان الاقتصاد وعلم النفس والاجتماع — أخطر ميادين ثلاثة فى عالم الفكر — على أساس معاد للدين ، بل محطم لكل مفاهيمه أولئك هم : ماركس — فرويد — دركايم »[1] .

ويذكر الأستاذ عبد السميع المصرى بعض نصوص بروتكولات حكماء صهيون فيقول : « كان امتلاك الأراضى دائماً مصدراً للنفوذ والسلطة ، فباسم

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية ص ٣٤ .

العدالة الاجتماعية والمساواة تقسم الملكيات الكبيرة ، ونعطيها الفلاحين الذين يتوقون إليها ، ولن يلبثوا أن ينوءوا بعبء استغلالها ، فتسنح الفرصة لامتلاكنا لها ، ونصبح بدورنا ملاكا كباراً .... بالمذهب والمدح يمكننا اكتساب الطبقة العاملة التى تتولى القضاء على الرأسمالية[1] .

وليست أصابع اليهود وراء الشيوعية فقط ، ولكنها تلعب نفس الدور مع الرأسمالية ، حيث تدفعها دفعاً عنيفاً لتتسلط وتتصرف فى أمور الناس ومقدراتهم حسبما تشاء ، حتى يكون الناس عبيداً فى يد حفنة من أصحاب رءوس الأموال ، يقول الأستاذ عبد السميع المصرى : « ولقد أدى النظام الرأسمالى إلى تركيز الثروات فى أيد قليلة يتناقص عددها يوماً بعد يوم عن طريق إنشاء الاحتكارات الجديدة ، كاحتكار البترول العالمى ، وصناعة الصلب ، وصناعة السيارات حتى أصبحت القوة السياسية تسير فى ركاب الثروة ، كما أصبح السياسيون يقرون السلام ، أو يعلنون الحرب وفقاً لرغبات رأس المال وهو القائد الفعلى للقوة السياسية »[2] .

ويقول : « وأصبح كبار الرأسماليين هم القوة الحقيقية ـ فى العالم الرأسمالى ـ مستترين فى ثياب الوطنية ، يقيمون الحكومات ويسقطونها ، ويشنون الحروب إذا شاءوا ، ويضعون رؤساء الجمهوريات ، ويدفعون تكاليف الحروب عن طريق إقراض الحكومات ويستردون أموالهم مضاعفة عن طريق تجارة الأسلحة وفوائد القروض »[3] .

وهكذا تتسلط اليهودية العالمية على المذهبين الكبيرين فى العالم ، فتوجههما الوجهة التى تريد وتصرفهما حسبما تملى عليها مصلحة الصهيونية ، لتقيم على أنقاضهما فى النهاية مملكة صهيون العالمية .

يقول المرحوم سيد قطب : « وسياسة اليهود إمساك العصا من الوسط ، والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط لتحقق بعض المغانم على أية حال ، وضمان صالح اليهود فى النهاية سواء انتصر هذا المعسكر

---

(١) مقومات الاقتصاد الإسلامى ص ١٨٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٧ .

(٣) مقومات الاقتصاد الإسلامى ص ١٨٨ .

ومنعت الناس من الاستماع إلى الدعاة ، ليفحصوا كلامهم ويفكروا فيه بعقولهم ، لتستقر معانيه فى قلوبهم ، مما اضطر المسلمين إلى قتال هؤلاء المعاندين ، وفتح بلادهم بالسيف .

وأما الثانية فقد هادنت ولم تتمرد ، ولم تعق مسيرة الدعاة إلى الله ، فهادنها المسلمون ، وصالحوا أهلها .

وفى كلا البلدين لم يجبر المسلمون أحداً على اعتناق الإسلام ، بل مهدوا الطريق ، وعرضوا الفكرة ، وتركوا الناس يختارون لأنفسهم ما يفضلون من العقيدة ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[1] وقوله سبحانه : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾[2] .

يقول الشوكانى فى تفسير الآية : قل لهم يا محمد الحق من ربكم ، وبعد أن تقول لهم هذا القول ، من شاء أن يؤمن بالله ويصدقك فليؤمن ، ومن شاء أن يكفر ويكذبك فليكفر[3] .

وهذه هى غاية الصراحة فى حرية الإنسان حين يختار لنفسه عقيدته بعد أن يبين له الحق ، وتوضح له معالمه .

وتاريخ الإسلام ملىء بالشواهد التى تدل على أن الفتح الإسلامى لم يكن لإجبار الناس على تغيير عقائدهم ، ولا لاستغلال خيرات البلاد واستعباد أهلها ، فأبو عبيدة بن الجراح يأخذ الجزية من أهل حمص ليدافع عنهم ، ولما عجز عن الدفاع عن حمص ، وغلبه الروم عليها ، رد الجزية إلى أهلها ، قبل مغادرة البلاد .

أفيكون هذا صنيع قوم فتحوا البلاد لاستغلال خيراتها واستعباد أهلها ؟ ولو كان المسلمون من هذا النوع لما ردوا مالاً حصلوه ، ولا استعملوا سياسة الأرض المحروقة على حد تعبير المحدثين ـــ قبل مغادرة البلاد ، حتى لا يهنأ بها العدو المسترد لها .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .

(٣) فتح القدير جـ ٣ ص ٣٨٢ .

فالجهاد إذن فى عقيدتنا لنشر الدعوة ، وتأمين الدعاة وتوضيح الحق ، وضمان الحرية لأولئك الذين يبحثون عن الحق وتعوقهم سياط الطغاة الجبارين .

وأما القتال فى العقائد الأخرى فمن أجل القضاء على الأفكار المعادية ، واستغلال البلاد المفتوحة ، واستعباد أهلها ، وتسخيرهم لخدمة الغزاة ، وإجبارهم على اعتناق مبادئهم .

وهذه بديهيات تملأ تاريخ المذهبين المتنافسين على امتلاك العالم ، والتسلط على أهله وخيراته ، ونظرة واحدة إلى خريطة أوربا قبل الحرب العالمية الأخيرة وبعدها توضح مدى التغيير المروع الذى أدخل على الخريطة بعد انتهاء الحرب ، فدول كانت تتمتع بحريتها استعبدت وخضعت لإحدى دول الحلفاء ، ودول كانت موحدة تمزقت فأصبحت دولتين أو دويلات ، ودول كانت رأسمالية ، فغلبت عليها روسيا ، فاتخذت رغم أنفها الشيوعية مذهباًوعقيدة ، ودول كانت شيوعية وقعت تحت النفوذ الرأسمالى فأرغمت على استبدال عقيدتها ، واعتنق أهلها عقيدة الفاتح المتسلط الجديد .

تلك حقائق لا يستطيع أى إنسان مهما كان فصيحاً أن يجد من نفسه القدرة على تبريرها ، ولسنا فى حاجة إلى التدليل على ما نقول ، فشيوعه أعظم من أن يخفى على ذى بصر بالأمور ، مطلع على أحوال العالم .

وتعتبر ألمانيا نموذجاً لذلك كله ، فقد كانت دولة واحدة فصارت دولتين إحداهما شرقية ، والأخرى غربية ، وكانت دولة حرة ، فأصبحت ترزخ تحت نير المعسكرين ، شرقيها تحت التسلط الشيوعى ، وغربيها تحت وطأة الرأسمالية .

ولما حاولت النمسا فى عام ١٩٥٦ م الخروج من قبضة الدب الروسى ، استعملت روسيا ضدها أبشع أنواع المبيدات ، حتى كانت تقتلع البيوت من جذورها وتهدمها على رءوس أصحابها ، وعادت فى النهاية إلى المخالب الحمراء .

ولم تكن النمسا الدولة الوحيدة التى استعملت ضدها تلك الإجراءات ولو كان كذلك لاعتبرناها شذوذاً لا يعتد به ، ولكنها تكررت مع كل دولة

امتحنت بالاستعمار الروسى ، وأقربها منا اليوم ما جرى فى تشيكوسلوفاكيا[1] يوم ثار أبناؤها لاسترداد حريتهم ، عندئذ اقتحمت الدبابات الروسية بلادهم ، وفرض الجيش الروسى سيطرته على رقابهم ، وأحصى عليهم أنفاسهم وخطرات قلوبهم ، وعاد الشعب السلافى مرة أخرى تحت وطأة المبادىء التى ضاق بها ، وحاول الفرار من قبضتها .

والذى يندى له الجبين ، وينفطر له القلب ، أن دولة واحدة من الدول التى تتشدق بالحرية ، وتملأ الدنيا صراخاً بالديمقراطية لم تتحرك لإنقاذ هذا الشعب الذى سئم العبودية ، ويئس من الرخاء الموهوم الذى تدعيه الشيوعية ، ذلك لأن المعسكرين متآمران على تلكم الشعوب التى فقدت بسبب الحرب حريتها وفقدت مع حريتها مناهجها ومبادئها .

تلك هى أبرز الملامح التى تميز عقيدتنا عن العقائد الأخرى ، وتوضح أنها هى الجديرة بإسعاد البشرية ، وتحقيق حريتها الدينية والفكرية ، وحل مشكلاتها المستعصية على المفكرين .

٤ ــ الجماعة والعمل الجماعى :

الجماعة فى الإسلام هى الأصل الذى يعمل المسلمون جاهدين لتحقيقه ، وليست عناية الإسلام بالفرد إلا ليكون لبنة صالحة فى الجماعة التى ستتحمل عبء الدعوة من حيث نشرها والجهاد فى سبيل نصرتها ، وإقامة الدولة التى دعا الإسلام إلى تشييدها وتدعيم أركانها .

لهذا كانت كل العبادات فى الإسلام جماعية ، أو داعية إلى تدعيم الجماعة ، كما أشرت إلى ذلك سابقاً .

فالصلاة فى جماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، وصلاة الجمعة لا تصح إلا فى جماعة .

والصيام يدفع الأغنياء على العطف على الفقراء فيلتئم الشمل وتتحاب الجماعة .

والزكاة تؤخذ من الأغنياء ، وتعطى للفقراء ، فيتعاطف الجميع ، وتزول

(١) كذلك حصل فى بولندا فى الفترة الأخيرة .

الشحناء فتتدعم الجماعة .

والحج فى مظهره ومخبره فريضة جماعية ، حيث يتساوى الجميع فى الزى ، والموقف ، مودعين الدنيا ، مقبلين على الله فتأتلف القلوب ، وتتحد المشاعر ، وتقوى رابطة الأخوة ، فتقوى بذلك الجماعة المسلمة .

والجهاد يقف فيه المسلمون صفاً كأنهم بنيان مرصوص وهكذا جميع الفرائض والواجبات .

وجوب العمل لإيجاد الجماعة المسلمة :

والعمل لإيجاد الجماعة المسلمة فريضة واجبة على كل مسلم والعمل على تدعيمها وتقويتها أمر حتمى مطالب به كل مسلم ، ومسئول عنه بين يدى الله عز وجل .

لهذا دعا الإسلام إلى التزام الجماعة ، ونهى عن مفارقتها عند وجودها ، حتى ولو جار الأئمة وظلموا .

فالقرآن الكريم يأمر المسلمين بالتزام الجماعة ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا** ﴾[1] ويطالبهم بإيجاد الجماعة المسلمة إذا لم تكن موجودة ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[2] .

ويحث على العمل الجماعى حتى فى طلب العلم ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[3] .

وحتى فى الجهاد وقتال الأعداء : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾[4] .

---

(١) آل عمران الآية ١٠٣ .
(٢) آل عمران الآية ١٠٤ .
(٣) التوبة ١٢٢ .
(٤) الصف ٤ .

والرسول ﷺ يدعو المسلمين إلى ما دعاهم إليه القرآن الكريم من قبل ، روى الإمام أحمد والترمذى عن الحارث الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « آمركم بخمس : الجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع »(١) .

وعن عرفجة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد ، يريد أن يشق عصاكم ، أو يفرق جماعتكم ، فاقتلوه »(٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية »(٣) .

وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، فقلت له : هل بعد هذا الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن ، قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتى ، ويهتدون بغير هدىى ، تعرف منهم وتنكر ، فقلت : هل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، فقلت : يا رسول الله ، صفهم لنا ، قال : نعم ، هم قوم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، قلت : يا رسول الله ، ما ترى إن أدركنى ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين ، وإمامهم فقلت : وإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ، قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك »(٤) .

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »(٥) .

---

(١) مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى .
(٢) صحيح مسلم .
(٣) صحيح مسلم .
(٤) صحيح مسلم .
(٥) صحيح مسلم .

وأم سلمة رضى الله عنها تحذر أهل العراق من المشايعة ومفارقة الجماعة فقد روى ثابت بن العجلان عنها أنها كتبت إلى أهل العراق ، تقول : « إن الله برىء ، وبرىء رسوله ، ممن شايع ، وفارق الجماعة ، فلا تشايعوا ولا تفارقوا ، والسلام عليكم ورحمة الله »(١) .

هذه الأحاديث الشريفة وتلك الآيات الكريمة ، تدعو بوضوح لا خفاء فيه ، إلى الجماعة ، وتحث على الالتزام بها ، وتنهى عن التفرقة والتمزق ، وتبين أن التفرقة أعظم أسباب الوهن والفشل ، قال تعالى : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم** ﴾(٢) .

ولقد بلغ من اعتداد الإسلام بالجماعة ، واهتمامه بتدعيمها وتقويتها أن اعتبر المؤمنين الذين لم ينضموا إلى جماعة المسلمين فى منزلة أقل من منزلة الكافر المعاهد ، ولم يجعل لهم ولاية فى عنق الجماعة المؤمنة ، يقول تبارك وتعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾(٣) .

يقول الشوكانى رحمه الله : « وإن استنصروكم ، أى هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا ، إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ــ فعليكم النصر ــ فواجب عليكم النصر ، ــ إلا ــ أن يستنصروكم ــ على قوم بينكم وبينهم ميثاق ــ فلا تنصروهم ، ولا تنقضوا العهد الذى بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضى مدته »(٤) .

ويقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : « فأما الذين يملكون الهجرة ولم يهاجروا ، استمساكاً بمصالح أو قرابات مع المشركين ، فهؤلاء ليس بينهم وبين

(١) المطالب العالية تحقيق الدكتور الأعظمى .
(٢) الأنفال ٤٦ .
(٣) الأنفال ٧٢ .
(٤) فتح القدير تفسير الآية .

المجتمع المسلم ولاية ، كما كان الشأن فى جماعات من الأعراب أسلموا ، ولم يهاجروا لمثل هذه الملابسات وكذلك بعض أفراد فى مكة من القادرين على الهجرة . . .

وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم ــ إن استنصروهم فى الدين خاصة ــ على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد ، لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية »[1] .

مقومات الجماعة المسلمة :

مما سبق يتبين لنا أن الجماعة المسلمة لها مقومات أساسية ، ودعائم إيجابية ، لا يتحقق وجودها كجماعة إلا بها ، ولا يوجد المجتمع المسلم إلا بوجودها .

١ ــ فهو مجتمع جماعى النزعة ، لا يعرف أفراده الانعزال أو الفردية ، ولا يستطيعون تحقيق حياة كريمة إلا فى ظل الجماعة المسلمة ، فالمسلمون أكفاء ، يجير بعضهم على بعض ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، والمسلم للمسلم كاليدين تغسل إحداهماالأخرى ، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا .

٢ ــ وهو مجتمع متحاب هين لين بعضه على بعض ، لا تعرف البغضاء إلى قلوب أفراده ــ ما داموا متمسكين بالإسلام ــ طريقاً ، فهو متحاب فى الله ، قريب من الله ، يحب اللهويحبه الله ، يذل كل فرد فيه نفسه لإخوانه ، ويعزها على أعداء الله ﴿ **ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم ، يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين** ﴾[2] .

٣ ــ وهو مجتمع الإيثار والتضحية ، ليس لأى فرد فيه ما يحتفظ به لنفسه دون إخوانه ، فماله له ولإخوانه ، وجهده له ولإخوانه ، وحياته له ولإخوانه .

---

(١) فى ظلال القرآن تفسير الآية .

(٢) المائدة ٥٤ .

الأنانية عنده أخس شيء يتصف به الإنسان ، والأثرة أبغض إليه من عدوه ، لأنها هى التى تمكن منه عدوه .

قال تعالى : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[1]

وهل تتحقق المحبة والرفق واللين إلا بين أفراد مجتمع متماسك ؟ وهل يوجد الإيثار وتكون التضحية إلا لمجتمع مثالى حققت وجوده العناية الربانية ، وأرسى دعائمه وحى السماء ؟

أفيجوز لمسلم بعد ذلك أن يزعم أنه يستطيع القيام بما كلفه به الإسلام منعزلاً عن المجتمع ؟ وهل يجوز للفرد المسلم أن يعيش وحده ، ولا يتفاعل مع الجماعة المسلمة العاملة فى المكان الذى يعيش فيه ؟ وهل يقبل من مسلم أن يقوم بفرائض الإسلام وأركانه بعيداً عن مجتمعه ؟ ؟

ليس هذا من الإسلام فى شيء مهما زعم صاحبه أنه مسلم كما يزعم اليوم كثيرون .

روى الإمام أحمد عن الحارث الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « آمركم بخمس : بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية ، فهو من جثى جهنم ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم[2] .

وهل هناك دعوى إلى الجاهلية الآن أشد على المسلمين من تفريق جماعتهم ، وتمزق وحدتهم ؟

إن أولئك الذين يدعون المسلمين إلى الانعزالية ، ويحرضونهم على العمل الفردى ، ويحطمون جماعة المسلمين ، ويشيعون عنهم الأراجيف وينفرون منهم

---

(١) الحشر ٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد .

ذوى النيات الحسنة والصدور السليمة ، هم الذين يدعون بدعوى الجاهلية ﴿ أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾[1] .

فوائد العمل الجماعى :

للعمل الجماعى آثار طيبة مباركة ، تعود على المجتمع بفوائد جليلة ، لأن العمل الجماعى يحيى فى المجتمع معانى سامية ، تشد أركانه ، وتقوى دعائمه ، وتربط بين أفراده برباط وثيق لا تنفصم عراه منها :

١ ــ التعاون الذى حث عليه القرآن الكريم ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾[2] .

٢ ــ ومنها الأخوة التى أثنى عليها الله عز وجل فى كتابه العزيز ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[3] .

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[4] .

٣ ــ ومنها الإيثار وهو تضحية الإنسان بمصالحه الخاصة ، ليحقق لغيره تلك المصلحة ، وهذا المعنى الجليل لا يتحقق إلا فى مجتمع مثالى ، تربط بين أفراده رابطة أقوى من روابط الدم وآصرة أوثق من أواصر الرحم ووشيجة أعظم من وشائج النسب ، تلك هى العقيدة التى طهرت العقول من الخرافات ، وخلصت النفوس من الوثنيات ، ووجهت الناس جميعاً وجهة واحدة ، يدينون بالوحدانية ، ويعبدون الله وحده بما شرعه على لسان نبيه .

من أجل هذا أثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله عز من قائل : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾[5] .

---

(١) البقرة ٢٢١ .
(٢) المائدة ٢ .
(٣) الحجرات ١٠ .
(٤) آل عمران ١٠٣ .
(٥) الحشر ٩ .

٤ ــ ومنها المحبة وهى الأساس الذى قام عليه المجتمع الإسلامى كما ألمعنا إلى ذلك من قبل ، ففى الآية السابقة ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ وفى آية أخرى ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ﴾**[1] .

وهكذا كلما جاءت طائفة من المسلمين أحست بفضل من سبقها إلى هذا الدين ، وقدرت لهم هذا الجميل ، فكافأتهم عليه بهذاالدعاء الذى يفيض بأسمى معانى البر والمحبة والتقدير ﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ .

بل هم يترفعون بقلوبهم أن يدنسها الغل على إخوانهم المؤمنين فيسألون الله أن يطهرها من هذا الوباء الذى يقوض أركان المجتمع ويأتى على قواعده ﴿ **ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا** ﴾ .

إن أرقى درجات المحبة فى الله تلك التى اتصف بها هذا المجتمع ، ونادى بها رسول الله ﷺ فى أكثر من مناسبة « وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله »[2] « ما تحاب رجلان قط إلا كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه »[3] « أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »[4] .

تلك الصفات الحميدة والخصال الجليلة ، إنما تكون ثمرة طبيعية للعمل الجماعى ، لأن العمل الجماعى يقتضى من كل فرد فى المجتمع أن يبذل أقصى جهده لخدمة مجتمعه ، فيمد يد العون لمن معه فيتحقق التعاون ، وببذل الجهد ومد يد العون تتحقق الأخوة ، ونتيجة حتمية لتحقق هذا المعنى يوجد الإيثار ، وتكون المحبة ، ويجنى المجتمع أطيب الثمرات ، ويعيش أبناؤه فى أمن وسلام .

---

(١) الحشر ١٠ .
(٢) صحيح مسلم
(٣) صحيح البخارى .
(٤) صحيح مسلم .

مضار العمل الفردى :

بالعكس مما ذكرنا تكون ثمرات العمل الفردى فى المجتمع أياً كان ذلك المجتمع فجة مرة ، تحمل بين ثناياها تفتيت المجتمع ، وتفريق الجماعة ، فإذا هى نكدة عفنة ، تصيب المجتمع بالآفات والأضرار ، وتكون نتائجها ما يأتى :

١ ــ التفرقة وهى داء عضال تصاب به المجتمعات ، فيضعف قوتها ، ويوهن عزيمتها ، ويجعلها لقمة سائغة لأعدائها ، ذلك لأن العمل الفردى لا يهتم بالتجميع ، ولا يعمل له ، يعيش فيه كل فرد لنفسه فقط ، لا يعبأ بجيرانه ولا يهمه أحوال أقرانه ، فمتى توفر للفرد ما يريد ، قنع به وإن لم يحصل عليه أحد من إخوانه .

ولهذا نهى القرآن الكريم عن التفرقة ، يقول تعالى : ﴿ **ولا تفرقوا** ﴾[1] ويقول : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾[2] .

٢ ــ العداوة وهى نتيجة حتمية للتفرقة ، لأن الإنسان الذى لا يهمه إلا نفسه ، ولا يسعى إلا لمصلحته ، يحاول الحصول على هذه المصلحة ، ولو كانت ملك غيره ، ويصر على انتزاعها ولو من فم ولده ، عندئذ يكون التناحر حتماً مقضياً ، وتكون العداوة أمراً لا مفر منه ، وتصبح هى الأساس الذى يبنى عليه المجتمع حياته ، فتشتعل نارها ، ويصبح كل فرد ويمسى وهو ينفخ فى هذه النار لتزداد سعيرا .

ولقد من الله على المؤمنين إذ أزال من قلوبهم العداوة واعتبر ذلك نعمة يستحق سبحانه الشكر عليها حيث قال : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمه إخوانا** ﴾[3] .

٣ ــ الأنانية وتلك ثالثة الأبسافى ، وتصور مجتمعاً يقول فيه كل فرد : أنا وأنا فقط ، فهو لا يكتفى بأن يحصل حقه ، بل يسعى جاهداً للحصول على

---

(١) آل عمران ١٠٣ .
(٢) الأنفـال ٤٦ .
(٣) آل عمران ١٠٣ .

حق غيره ، ويحرص على أن يحرمه منه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، لأنه لا يرى بنظره القصير المحدود غير نفسه ، ولا يسمع بسمعه الكليل إلا نداء شيطانه ، ولا يحس بحواسه المتبلدة سوى مطالب جسده ، يرى أن كل خير فى الكون يجب أن يكون له وحده ، وكل شر فيها لا بد أن ينصرف عنه إلى غيره ﴿ **تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾[1] .

٤ ــ ثم تكون البغضاء ، وماذا يجنى مجتمع التفرقة والعداوة والأنانية سوى البغضاء ؟ وماذا ينتظر هذا المجتمع غير التمزق والهوان ؟

إن التباغض والتناحر معولا هدم فى حياة الأمم التى يتصف أفرادها بهاتين الصفتين ، وإن المجتمع الذى يقول فيه كل فرد نفسى نفسى لهو مجتمع هان عليه الهوان ورضى لنفسه الذل ، ونزول البلاء ببعضه أحب إلى بعضه الآخر من أن تشمل العافية الجميع .

ذلك هو حصاد العمل الفردى ، وتلك هى نتائجه الوخيمة والإسلام ولا شك برىء منها ، لأنه يحاربها ، وينهى أتباعه عن الاتصاف بها ، ويحذرهم من الوقوع فيها .

وهنا شىء يجب التنبيه عليه ، ويجب كذلك أخذه بعين الاعتبار ، ذلك هو أن الإنسان مدنى بطبعه ، اجتماعى بفطرته ، لا يمكنه مطلقاً ــ مهما حاول ــ أن يعيش وحيداً فريداً ، لأنه فى أبسط ضرورياته محتاج إلى غيره ، ولقد أدرك الإسلام هذه الحقيقة قبل أن يدركها علماء الاجتماع بمئات السنين ، إلا أن الإسلام دعم هذه الظاهرة بالأخوة التى أقامها بين بنى الإنسان جميعاً أسودهم وأبيضهم ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، ولا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى فلا مجال إذن لأن يعتزل إنسان أخاه ، ولا مجال لأن يفخر إنسان بحسبه ونسبه ، ولا أن يحتقر إنسان لضعة نسبه ، وقلة ذات يده ، ولقد ترجم الشاعر الإسلامى تلك الحقيقة حيث يقول :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء

---

(١) النجم ٢٢ .

فإن يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

ومن أجل ذلك نجد الإسلام قد نجح فى توثيق الروابط بين الذين آمنوا به ، ودخلوا تحت لوائه ، وكانت تلك الروابط أقوى على مواجهة المحن ، وأقدر على حل مشكلات المجتمع ، حتى شاهدت الدنيا ولأول مرة فى تاريخها الطويل أن الإسلام قد أقام مجتمعاً ظل فترة طويلة لم يحتج إلى قضاء يرجع إليه فى فصل خصوماته ،ولا إلى شرطة تحفظ أمنه ، وترعى حقوقه ، وتسهر على حراسة مقوماته .

وأما علماء الاجتماع فقد حاولوا تدعيم تلك الظاهرة بأسباب مادية صرف، فالإنسان مرتبط بالإنسان بتلك الأسباب المادية لأنه محتاج لمن يصنع له طعامه ويقدم له شرابه ، وهو كذلك بحاجة إلى من يصنع له ملابسه ومسكنه الذى يأوى إليه ، كما هو محتاج إلى من يؤدبه ويعلمه ، إلى غير ذلك ، وهو فى كل هذا أو جله محتاج إلى غيره ، ومن هنا — فى نظر — علماء الاجتماع نشأت علاقات الناس بعضهم ببعض .

ونحن نرى فى هذه الروابط ضعفاً لا يقوى على مواجهة نوازع النفس البشرية ، ولا يقدر على حل ما ينشب بين بنى الإنسان من خلافات وخصومات ، ذلك لأن هذه الروابط ليست نابعة من نفس الإنسان برضى منه ورغبة ولكنه فى الحقيقة مجبر عليها ، فالحذاء والحائك ، والحجام والقصاب إلى غير ذلك من أصحاب الحرف ، لو سئل كل منهم عن رأيه فى حرفته ، لكانت الإجابة بالسخط وعدم الرضى ، ولولا أنه مضطر إلى ممارستها ليكسب قوته وقوت عياله لما باشرها .

من هذا نعلم أن الإنسان لا يبذل المال للصانع أو للتاجر أو للعامل أو للمعلم لأنه أخوه ، أو لأنه محتاج إلى المال ، بل لأنه يقوم له بعمل ما مقابل هذا المال المبذول ، وبالتالى لا يعمل العامل ، ولا ينتج الصانع ، ولا يبيع التاجر ، ولا يؤدب المعلم لأن الناس أخوة له أولأنهم محتاجون إلى ما يقدمه لهم ، بل ليحصل على المال مقابل ما يقوم به من عمل .

ولذلك نجد المجتمعات التى قامت على أساس هذه الروابط مجتمعات

حاقدة مبغضة ، ليست راضية ولا قانعة ، حتى أصبحت تلك المجتمعات مرتعاً خصباً للمبادىء الهدامة التى لا تنتشر إلا فى الظلام ولا تعيش إلا فى المستنقعات .

وبهذا نتبين الفرق هائلاً بين تفسير الإسلام لمعنى التعاون الحاصل بين الناس ، حيث يربطه بمعان روحية سامية ، ويقيمه على قواعد الأخوة الحاصلة بين بنى آدم أجمعين .

ولقد فقه المسلمون فعلاً هذا المعنى وعاشوا فيه ، وإن موقف عثمان بن عفان رضى الله عنه من تجارته التى جلبت إلى المدينة المنورة فى عام قحط وشدة لأوضح شاهد على تأصل معنى الأخوة فى علاقات المسلمين بعضهم ببعض .

حضرت هذه التجارة العظيمة والمسلمون فى حاجة ماسة إلى الطعام ، حيث كان العام عام جدب ومجاعة ، وحضر التجار يساومون عثمان رضى الله عنه فى ثمنها ، حتى بلغوا بها أضعاف قيمتها ، وعثمان يرفض ، ويصر على الرفض ، ولما سئل عن سبب رفضه قال : لقد بعتها إلى من زادنى عما أعطيتمونى بعتها إلى من اشتراها بعشر أمثالها ، وتصدق بها على المسلمين .

ومن قبله عمر رضى الله عنه فى عام الرمادة ، وقد أجدب المسلمون وأجهدهم الجوع ، حتى أنهم لم يجدوا ورق الشجر ليأكلوه ، فأرسل عمر إلى ولاته يعثون له بالأرزاق ، فلما أحضرت ، أخذ يعد الطعام بنفسه للمسلمين ، ولما قرقرت بطنه من الجوع ، ضرب عليها بيده ، وقال : قرقرى أو لا تقرقرى ، فوالله لا تذوقين سمناً ولا عسلاً حتى يشبع المسلمون .

على هذه المعانى السامية من الأخوة والشعور بالمسئولية ، بنى الإسلام قواعد المجتمع الذى قامت فيه دولته ، وعمت على أرضه حضارته ، ليست هناك مبررات لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وليس هناك ما يدعوه لاستغلال حاجته لأن المبادىء السامية الرفيعة التى ركزها الإسلام فى نفوس الناس تأبى عليهم أن يكونوا محتكرين أو استغلاليين .

لم تكن هذه المعاملة خاصة بالمسلمين ، بل امتدت إلى غيرهم ممن يعيشون فى كنفهم ، ويحتمون بدولتهم ، حتى أن عمر رضى اللهعنه لما رأى يهودياً

أقعدته الشيخوخة وعجز عن العمل ، فراح يتكفف الناس يسألهم ويطرق أبوابهم قال : يا شيخ ما أنصفناك أخذنا منك الجزية قوياً وضيعناك ضعيفا ، وضرب له حصة من بيت مال المسلمين .

وأما تفسير الماديين لهذا التعاون فمبنى على حاجة الإنسان إلى الإنسان ، وهم يقيمونه على قواعد الضرورة الملحة التى تسخر الإنسان لأخيه الإنسان .

فالعلاقات قائمة بين إنسان ما ـ عندهم ـ وبين الصانع ـ مثلاً ـ ما دام الإنسان فى حاجة إلى الصانع ، فأنا أقدم له القماش ، وهو يقوم بحياكته ، حتى إذا أخذت ثوبى وأخذ أجرته ، انقطعت العلاقات التى بيننا حتى أحتاج إليه وهكذا ، فإذا وجدت العلاقة مستمرة بين التاجر والصانع بعد انقضاء حاجة كل منهما ، فلا بد أن يكون هناك علاقة غير علاقة الضرورة والحاجة الملحة ، فما هى إذن تلك العلاقة ؟

إنها علاقة الإنسان بالإنسان للمعنى السامى الذى دق على أفهام الماديين فلم يدركوه ، وخفى عن أذواقهم فلم يحسوه ، وذلكم هو المعنى الذى أقام عليه الإسلام مجتمعه ، بمعنى الأخوة والشعور بالمسئولية .

ولهذا نلمح عتاباً رقيقاً لأبى بكر الصديق رضى الله عنه حين أقسم ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا ، وكان مسطح قد اشترك فى حديث الإفك ، وممن خاض فيه وكان أبو بكر رضى الله عنه من قبل ينفق على مسطح لفقره وحاجته فلما اشترك فى حديث الإفك أقسم ألا ينفق عليه ، فعاتبه الله تعالى بهذا العتاب الرقيق .

إن علاقة الإنسان بالإنسان فى الإسلام ليست قائمة على أسس مادية ، فأبو بكر ينفق على مسطح ما دام ماشياً فى ركابه ، فإذا خرج عليه تنقطع النفقة ، وإنما العلاقات قائمة على أساس الأخوة ، والأخوة بين المسلمين قائمة لا تنقطع سواء ساءت العلاقات بين الرجلين أم لا ؟

ذلك لأن الأصل فى العلاقات بين المسلمين أن تكون حسنة ، فإذا ساءت فإنما ذلك لأمر طارىء يزول سوء العلاقات بزواله ، والأمور الطارئة يجب ألا تؤثر فى الأمور الثابتة المقررة .

نعم إن مسطحاً أخطأ فى حق أبى بكر . ولكن الخطيئة هفوة يمكن التوبة منها والإقلاع عنها ، فهى إذن لا يمكن أن تكون أساساً للعلاقات بين الناس ، ولهذا ذكر الله عز وجل أبا بكر رضى الله عنه بأن كل الناس يخطئون ، ويتوبون ، فيتوب الله عليهم ، ويعفو عنهم ، فما لكم لا تعاملون بعضكم بهذا الخلق الفاضل ؟

يقول سبحانه : ﴿ **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم** ﴾[1] .

إن العلاقات بين بعض أفراد المجتمع المسلم أوشكت أن تنقطع ، لخوض مسطح فى عرض أبى بكر ، وأوشكت النزعة البشرية أن تتغلب فى هذا الموقف الحرج ، ولكن القرآن الكريم الذى بنى علاقات هذا المجتمع ، ووضع أسسها القويمة ، يرد هذه النزعة فى لطف يعيد إلى النفوس صفاءها ، ويرد إلى القلوب طهارتها وإلى الصدور سلامتها ، فيذكرها أن الخطيئة من طبيعة الإنسان وأن العفو والصفح من الشيم الفاضلة التى يعامل الله سبحانه بها عباده المخطئين ، ثم يوجه إليهم هذا السؤال التقريرى ﴿ **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ ؟ ؟

حينئذ يعمل هذا العتاب الرقيق عمله فى نفس الصديق ، ويؤتى ثمرته ، ويحرك وجدانه الخير ، فيترفع عن أن يعامل مسطحاً بمثل ما عامله به ، بل ينسى للناس جميعاً خوضهم فى عرضه ، وثلمهم لشرفه ، وتتجاوب نفسه المؤمنة التى تربت فى مدرسة النبوة الفاضلة ، ويجيب : بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، ويرضى عن مسطح ، ويعيد إليه نفقته ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبدا .

وهكذا تعود العلاقات بين أفراد المجتمع فى خطها الذى رسمه لها الإسلام ، محبة ووئاماً ، وصفاء وسلاما ، ذلك لأن الإسلام يرفض أن تعيش جماعته ممزقة الشمل ، مقطعة الأوصال ، يعيش كل فرد منها فى عزلة عن الآخرين .

---

(١) النور ٢٢ .

لا بد للفرد المسلم من جماعة يعيش بينها :

ولما كان الإسلام يهتم بتربية الفرد المسلم ، ويعنى بذلك عناية فائقة ــ لأنه اللبنة التى يتكون منها هذا البناء الشامخ ــ كان لا بد أن يعيش هذا الفرد فى جماعة ، تحتضنه ، وتعطف عليه ، وتهيىء له وسائل التربية السليمة ، وإلى هذا المعنى يشير الحديث الشريف « المؤمن مرآة أخيه »[1] .

فإن مفهومه يدل على أن الفرد وحده منعزلاً عن الجماعة لا يبصر عيوبه ، ولا يعرف محاسنه ، فإذا كان الإنسان جاهلاً بنفسه ، فكيف يقومها ، ويعمل على تهذيبها ؟

ذلك لأنه إن أساء لا يدرى عن إساءته ، وإن أحسن لا يسمع من يشجعه حتى يستمر فى إحسانه ، فإذا كان فى مجتمع متناصح متفاهم ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ــ وتلك هى أهم صفات الجماعة المسلمة ــ وجد فى كل فرد من أفراد المجتمع مرآة صادقة ، لا تجامل ، ولا تخدع ، يرى فيها عيوبه ، كما يبصر من خلالها محاسنه .

وما أروع هذا التعبير الدقيق « المؤمن مرآة المؤمن » فكما أن المرآة لا تخفى شيئاً عن الناظر فيها ، كذلك المؤمن لا يجوز له أن يسكت عن عيب يراه فى أخيه ، وكما أن المرآة لا تنقل ما يظهر فيها إلى غير الناظر إليها ، فكذلك المؤمن لا يجوز له أن ينقل عيب أخيه إلى غيره ، وبهذا الفهم الدقيق تظهر روعة التصوير ، وبراعة التشبيه .

ولهذا تكون الجماعة ضرورية لتربية الفرد ، واستكمال نقصه بحيث لا يستطيع أن يعيش عيشة راضية إلا فى الجماعة التى تحرص عليه ، وتسعى جاهدة لتخليصه من العيوب والمساوىء ، ولهذا ورد فى الحديث « خير الأصحاب صاحب إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك »[2] .

فالجماعة المسلمة تنتشل الفرد من الضلال ، وتأخذ بيده إلى الهدى ،

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا .

وتحيطه برعايتها فلا يزيغ ، وتدفع عنه معاول الهدم والتخريب ، وتحبب إليه الخير ، وتدفعه إلى فعله ، وتبغض إليه الشر ، وتصرفه عنه .

والفرد المسلم لا يعيش إلا فى جماعة ، فإذا خرج عنها كان كالسمكة خرجت من الماء لتموت ، وإذا انعـــزل عن إخوانـــه كان كالشاة شذت عن القطيـــع ليفترسها الذئب وهذا هو المعنى الذى يصوره الحديث الشريف « عليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار »[1] .

(١) رواه الترمذى .